الفصل السادس والثلاثون بعد المئة

العربية لسان آدم في الجنة

رأى علماء العربية أن العربية قديمة ، وهي في نظرهم أقدم من العرب أنفسهم ، فلما كان آدم في الجنة كان لسانه العربيـة ، ولما عصى سلبه الله العربية فتكـلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه وعلى بعض أحفاده العربية . ونظرية ان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، فلما بعد العهـد وطال ، حرّف وصار سريانياً ، وكان يشاكل اللسان العربي ، إلا انه محرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرهـم ، فكان لسانه لسان العرب الأول ، فلما خرجوا من السفينـة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعبيل ، وجاثر أبي ثمود وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدّهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل الى يشجب بن قحطـان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[1] .

وقد تحدث (المعري) على لسان (آدم) في موضوع لسانه ، وما روى من شعر نسب اليه ، فجعله يقول : « أبيّم إلا عقوقاً وأذية ، إنمـا كنتُ أتكلم

---

١ « عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام ، كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصـى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية » المزهـر (١/٣٠) .

بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرهـــا الى أن هلكت ، فلما ردني الله — سبحانه وتعالى — الى الجنة ، عادت على العربية ، فأيّ حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟»[1] . وذلك ردّاً على من زعم أن آدم كان يعرف الشعر العربي ، وقـــد نظم شعره بالعربية ، ورووا له شعراً زعموا أنه قاله لتأييد صحة دعواهم .

وقد ذهب قوم من العلماء الى أن لغة العرب ، هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً ، واستدلوا بأن القرآن كلام الله هو عربيّ ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات[2] .

ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدهما : عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هـــود ومن قَبْله ، وكانت قبل اسماعيل .

والثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بهـــا إسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقيف اسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينـــه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله[3] .

والعربية المحضة هي العربية الخالصة ، وهي العربية الأصيلة عربية اسماعيل ، وقد نعتت بالعربية المتينة . قالوا : أول من فُتق لسانه بالعربية المتينة اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . روي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا: قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألهم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً»[5] . والعربية التي تكلم بها (اسماعيل) والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهـــد النبي ، تختلف عن عربية حمير وبقايا جرهم[6] ، وذكر أن (عمر بن الخطاب) ،

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢٨/١) .
٣ المزهر (٢٨/١) .
٤ المزهر (٣٤/١) .
٥ المزهر (٣٣/١) .
٦ المزهر (٣٣/١) .

قال للرسول : يا رسول الله ؛ مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال رسول الله : كانت لغـــة بني اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها [1] .

والعربية بعد ، في اصطلاح أئمة العربية : العربية المتينة . أما عربية أهـــل اليمن : عربية أبناء قحطان فعربية أخرى . وعلى هذا فنحن أمام عربيتين : عربية قحطانية ، وعربية عدنانية اسماعيلية . وبالعربية المتينة تكـــلم عرب الحيرة ، كما يظهر ذلك من خبر دوّنه (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) ، والطبري في تأريخه ، فقد ذكر (الجاحظ) ان (خالد بن الوليد) سأل (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقيلة) : « أعرب أنتم أم نبط ؟ قال : عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا . قال : فحرب أنتم أم سلم ؟ قال : سلم »[2] ، أو انه قال لهم : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عـــدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية »[3] . فلسان أهـل الحيرة عربي ، ليس لهم لسان سواه . بها كانوا ينظمون الشعر وبها كتبوا . فهذه العربية هي عربيـة الحيرة وعرب العراق .

وساير كثير من المستشرقين علماء العربية في تقسيم اللهجات العربية الى عربيتين : عربية جنوبية ، هي العربية القحطانية . وعربية شمالية ، هي عربية القبائل العدنانية . ولكل مجموعة لهجات محلية ، لم تكن تختلف فيما بينها اختلافـــاً كبيراً ، وتتباين بوناً شاسعاً ، وانما اختلفت في أمور بسيطة من الفروق اللسانية ، بحيث لا نستطيع أن نضعها في مجاميع لغوية جديدة [4] .

ومن الكتابات الجاهلية التي يعود عهد بعض منها الى ما قبل الميلاد ، حصل الباحثون على علمهم بلغة العرب الجنوبيين وبحضارتهم ، وقد تبـــين لهم منها أن تلك الكتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية ، وانها كانت لغة التدوين

---

١ المزهر (١/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٢/١٤٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦١) .
٣ الطبري (٣/٣٦١ وما بعدها) .
٤ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2, (1966).

عندهم ، وقد استعملت مصطلحات فنية تدل على وجود حضارة لدى الكاتبين بها ، وقد دام التدوين بها الى ظهور الاسلام[1] .

أما علمنا بقواعد نحو وصرف اللغة العربية الشمالية ، التي نسميها اللغة الفصحى، فمستمد من الموارد الإسلامية فقط ، لعدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بها . ولهذا اقتصر علمنا بها على ما جاء عنها في الموارد الاسلامية ليس غير . أما النصوص المعدودة القصيرة ، التي تبدأ بنص النمارة ، وتنتهي بكتابة (حران اللجا) التي يعود عهدها الى سنة (٤٦٣) من سقوط (خبر) (خيبر) ، المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، فإنها وان كانت قد كتبت بعربية قريبة من العربية المحضة ، إلا أنها تمثل في الواقع لهجة من اللهجات العربية الشمالية ، متأثرة بالإرمية (النبطية) ولذلك لا أستطيع اعتبارها نصوصاً من نصوص العربية الفصحى الخالصة ، ثم إنها قصيرة أطولها نص النمارة ، المدوّن بخمسة سطور فقط . ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . ولهذا لم نتمكن من استنباط شيء مهم منها ، يفيدنا في تعيين صرف ونحو العربية الفصحى ، أو هذه العربية التي دوّنت بها . ولهذه الأسباب صار علمنا اليوم بقواعد وبنحو كتابات المسند ، والكتابات الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية ، مستمد من موارد هي أقدم جداً من الموارد الاسلامية، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . ووثائق هذه العربيات جاهلية أصيلة،لا يشك أحد في أصالتها ، أما العربية الفصحى فنصها الوحيد ، الذي لا يشك أحد في أصالته هو القرآن الكريم ، فلا نص بها قبله ، وهو أطول نص ورد الينا بهذه العربية وبسائر العربيات الأخرى بغير استثناء .

هذا وقد سبق لي أن تحدثت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن تحديد لفظة العرب ، وعن معانيها ، وعن ورودها في مواضع من القرآن ، مثل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[2] . وفيه « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[3] . وفيه : « أأعجمي وعربي

---

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٣ وما بعدها .

قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء »[1] . وفيه : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[2] . و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[3] . و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[4]. و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[5]. و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[6] . وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[7] . و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[8] . و « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[9] .

فاللسان الذي نزل به القرآن ، هو اللسان العربي « الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً الى المحجة »[10] . وقد نزل « محكماً معرباً »[11] . وذلك تمييزاً لهذا اللسان عن ألسنة الأمم الأخرى التي نسبت الى العجمة ، فصارت ألسنتها ألسنة أعجمية[12] .

فاللغة العربية إذن ، هي لغة (العرب) ، وبهم سميت وعرفت فأخذت تسميتها من اسمهم . وقد عرفنا أن المدلول الأول للفظة (العرب) هو البداوة والأعرابية ، ثم توسع في مدلولها ، حتى شمل كل سكنة جزيرة العرب من بدو وحضر ، فأهل المدر عرب ، وأهل الوبر عرب كذلك ، وعرف أهل البوادي بالأعراب ، تمييزاً لهم عن أهل القرى ، أي الحضر ، وصارت اللفظة سمة خاصة بهم . أما لسانهم ولسان الحضر ، فهو اللسان العربي وكفى .

ووسمت هذه العربية بسمة أخرى ، صارت ترادفها حتى اليوم ، هي (العربية الفصحى) و (اللغة الفصحى) ، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

---

١ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٤٤ .
٢ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٣ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٤ طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٢٨ .
٦ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .
٧ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٨ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .
٩ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .
١٠ تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) ، (تفسير سورة الشعراء) .
١١ تفسير ابن كثير (٥١٨/٢) ، (تفسير سورة الرعد) .
١٢ الجزء الاول (ص ١٣ وما بعدها) من هذا الكتاب ، والجزء الاول من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام .

تمييزاً لها عن بقية اللغات واللهجات . والفصح والفصاحة البيان[1] . وبما أن اللغة العربية بينة بليغة قيل لها ذلك . وهي في معنى (لسان عربي مبين) ، أي لسان عربي فصيح أو بين . وبذلك لا ينصرف الذهن الى لغات العوام ولا الى لهجات القبائل في الجاهلية أو لغات أهل العربية الجنوبية ، لأنها لا تتصف بصفة الفصاحة في نظر علماء اللغة .

واللغة العربية التي نكتب بها ، لغة واسعة ، ما في سعتها من شك : ألفاظها كثيرة ، حتى لتجد فيها مئات وعشرات من المسميات وضعت كلها لمسمى واحد على ما يذكره أهل اللغة . فللأسد وللفرس وللجمل وللسيف وما يتعلق بها ألفاظ كثيرة ، تجدها في كتب اللغة والمعجمات . ونحن لا نريد الشك في ذلك ، ولكننا إذا أردنا أن نبحث بأسلوب علمي حديث مستند الى لهجات القبائل ، والى ما ورد في النصوص الجاهلية ، فإننا سنضطر الى القول بأن هذه الكثرة من الألفاظ ليست مسميات لشيء واحد في لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم ، وإنما هي مسميات لذلك الشيء في لهجات عربية أخرى ، جمعها علماء اللغة في الاسلام من أفواه أناس ينتمون الى قبائل متعددة ، أشاروا الى أسماء القبائل التي تكلمت بها أحياناً ، ولم يشيروا اليها في أغلب الأحيان . فذهبت بين الناس على أنها مسميات لمسمى واحد في لغة واحدة ، هي هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أي انهم جعلوها من الألفاظ المترادفة .

ولم تعين الموارد الأعجمية شكل اللغة العربية ، ولم تنص على لسان واحد من ألسنة العرب ، على انه اللسان العربي الفصيح العام الذي كان يتكلم به كل العرب. ولم يعين القرآن هوية اللسان العربي ، ولم يخصصه بلسان معين من ألسنة العرب المتعددة ، وانما جاءت التسمية فيه عامة شاملة ، لا تخص لساناً واحداً ، ولا لغة معينة محددة . قال المفسرون في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً » ، « فأنزلنا هذا القرآن عربياً اذ كانوا عرباً »[2] ، وقالوا في تفسير الآية: « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ، « كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً » وجعل ذلك عربياً ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي

---

١ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح) .
٢ تفسير الطبري (١٥٩/١٦) .

فنسب الدين اليه ، اذ كان عليه نزل فكذب به الأحزاب »[1] ، وقالوا في تفسير الآية : « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » : « يقول تعالى ذكـره وهكذا أوحينا اليك يا محمد قرآناً عربيـاً بلسان العرب لأن الذين أرسلتك اليهم قوم عرب فأوحينا اليك هذا القرآن بألسنتهم ليفهموا ما فيـه من حجج الله وذكره لأنا لا نرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم،لتنذر أم القرى وهي مكة وما حولها »[2] .

وقال (الطبري) في مقدمة تفسيره « فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منّا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ، كان معلوماً انه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب ، ولا يرسل الى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل اليه ، لأن المخاطب والمرسل اليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به اليه فحاله قبل الخطاب وقبـل مجيء الرسالة اليه وبعده سواء ، إذ لم يفـده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً . والله جـل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابـاً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت اليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث والله تعالى عن ذلك متعال . ولذلك قال جل ثناؤه في محـكم تنزيله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فغير جائز أن يكون بـه مهتدياً من كان بما يهدى اليه جاهلاً . فقد تبين اذن بما عليه دللنا من الدلالة ان كل رسول لله جل ثناؤه أرسله الى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله اليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أرسله اليه،وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله اليه . واتضح بمـا قلنا ووصفنا ان كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربياً ، فبيّن ان القرآن عربي . وبذلك نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : إنا أنزلناه قرآناً عربياً

---

١ تفسير الطبري (١٣/١١٠) .

٢ تفسير الطبري (٢٥/٦ وما بعدها) .

لعلكم تعقلون ، وقال : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »[1] .

وقد تعرض علماء العربية لمعنى (العجم) والعرب ، فقالوا : (العجم) خلاف العرب ، والأعجم من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب ، ومن في لسانه عجمة وإن أفصح بالعربية ، « وفي التنزيل : ولو نزلناه على بعض الأعجمين »[2] . وكل من لم يفصح بشيء فقد أعجمه ، وأعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه بالنقط ، وورد في شعر قيل هو لرؤبة ويقال للحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

ومنه :

والشعر لا يطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

أي يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبينه فيجعله مشكلاً لا يبان له[3] .

وقالوا : العرب خلاف العجم ، ورجل معرب ، إذا كان فصيحاً وان كان عجمي النسب . والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء . وأن يعرب بن قحطان هو أول من تكلّم بالعربية ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية ، وبه سمي العرب عرباً . وقيل : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا قرآناً عربياً لقوم يعلمون ثم قال : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً » ، وقيل إن يعرب أول من نطق بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[4] . الى غير ذلك من أقوال تحاول ربط لفظة (العرب) بالإعراب والافصاح والإبانة ، وربط العربية ، أي لسان العرب بقحطان ، وباسماعيل ، ووراء كل هذه الأقوال المصطنعة عصبية تتحزب لقحطانية

---

١ تفسير الطبري (١/٥ وما بعدها) .
٢ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٩/٦٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .

أو لعدنانية ، التي هي اصطنعت هذه الأقوال في الاسلام ، وحذلقة مصطنعة باردة استغلت المجانسة اللفظية بين عرب ويعرب وأعرب ، لإيجاد صلة بين معاني هذه الألفاظ وفي جذورها .

وتشمل لفظة (العجم) كل من ليس بعربي ، وهي في مقابل لفظة : « Barbarian » في اللغة الانكليزية المأخوذة من أصل يوناني،وهي لا تعني المتوحشين وإنما (أعاجم) و (غرباء) بتعبير أصح ، الذين كانوا لا يحسنون التكلم بلغة المهذبين ، بل كانوا يرطنون في كلامهم ، ويتكلمون بلهجات رديئة ، ثم أطلقها اليونان على كل من لا يحسن التكلم باليونانية وعلى كل من يتكلم بلغة غير يونانية. ولما دخل اليونان في حكم الرومان ، صارت الكلمة تطلق على كل الشعوب الأخرى التي لا تتكلم باليونانية ، أو اللاتينية[1] . ولا استبعد احتمال مجيء هذه النظرية عند العرب من اليونان ، وإن كان اليونان ، لم ينفردوا بها وحدهم ، فقد كانت الشعوب القديمة تعرف مثل هذه المصطلحات ، ومصطلح : (كويم) « Goim » العبري ، الذي يعني « Gentiles » في الانكليزية ، وغرباء ، وشعوب،ومشركين عبدة أصنام[2] ، يعبر عن هذه النظرة . فكل الشعوب باستثناء (العبرانين) هم (كويم) ،والعبرانيون هم المتكلمون بالعبرانية،وغيرهم هم الذين لا يتكلمون بها .

ولفظة (العجم) ، وإن كانت لفظة عامة ، قصد بها كل من هو ليس بعربي ، لكنها أطلقت في الغالب على الفرس واليونان ، وهم أرقى الشعوب التي احتك بها العرب في ذلك الوقت . وأطلقت على الفرس بصورة خاصة ، لما كان للساسانيين من اتصال خاص بالعرب قبيل الاسلام . أما سكان إفريقية ، فلم تطلق عليهم هذه اللفظة إلا قليلاً ، لأن العرب لم ينظروا اليهم نظرة احترام ، ولهذا عرفوا عندهم بالعبيد ، وبالحبش ، وبالسودان . وقد نعتوا بالطمطمانية ، فورد (طمطمٌ حبشيون) ، بالنظر الى لغتهم ، وعدم تمكنهم من الافصاح بالعربية . وقد ورد في معلقة (عنترة) : (أعظم طمطم) ، في هذا البيت:

تأوى له قلص النعام كما أوت حزق يمانيةٌ لأعجم طمطم[3]

---

١ Hastings, P. 84.

٢ Hastings, P. 303.

٣ البيت الـ (٢٥) من المعلقة .

ومن القرآن واللغة استنبط علماء اللغة قولهم في أن العربية من الإبانة والإفصاح ، وانها انما دعيت بذلك لأن (يعرب بن قحطـــان) كان أول من أعرب بلسانه فنسب هذا اللسان اليه . فقد رأينا ان الآيات المتقدمة التي أشرت اليها ، ذكرت ان القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وقد جعلته في مقابـــل اللسان الأعجمي ، فاستنتجوا منها ان العربية بمعنى الافصاح والإبانة ، وان التسمية انما جاءت من هذا القبيل ، مع ان الوصف راجع للغة القرآن ، لا للعربية نفسها ، ثم وجدوا أن الإعراب في اللغة بمعنى الإفصاح والإبانة ، فربطوا بين هذه اللفظة وبين لفظة (العرب) ، وقالوا ان (عرب) بمعنى فصح ، وأن (العرب) من هذا الأصل، مع انهم يذكرون أيضاً ان تعرب معناهـــا أقام بالبادية ، وأن تعرب واستعرب ، بمعنى رجع الى البادية بعد ما كان مقيماً بالحضر فلحق بالأعـراب . وأن تعرب بمعنى تشبّه بالعرب وتعرب بعد هجرته ، أي صار أعرابياً ، وأن في الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب ، بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجـرة الى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد[1] ، ومعنى هذا ان صلتها بالأعرابية وبـ (العرب) بمعنى البدو أهل البادية ، أقرب الى المنطق والمعقول من صلتها بالإبانة والفصاحة ، أي الإعراب . وقد سبق أن ذكرت ان معنى اللفظة في النصوص الأشورية وفي كتب اليونان واللاتين والعبرانيين والسريان ، وفي المسنـد ، هو (البداوة) والأعرابية لا غير ، ثم أطلقت على جميع سكنة جزيرة العرب ، لغلبة الحياة الأعرابية عليها حتى صارت لفظة (العربية) بمعنى بلاد العرب ، تدخل فيها مواطن أهل المدر وأهل الوبر ، وصارت لفظة (العرب) علماً على جنس وقوم .

وإذا أخذنا بهذا التفسير التأريخي المستمد من النصوص ، لزم علينـا القول إن العربية من (عرب) (العرب) ، أهل العربية ، وهم (الأعراب) ، وقد أطلقت على ألسنتهم جميعاً من غير تمييز ، فكل لهجات العرب : لهجات بدو أو لهجات حضر ، هي لهجات عربية ، لأنهم عرب ومن سكنة بلاد العرب ، ولهذا عرفت (جزيرة العرب) كلها (بالعربية) في كتب اليونان واللاتين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، لا نستثني منها لهجة من اللهجات ، مهما كان قربها أو بعدها من العربية التي نزل بها الوحي .

---

١ تاج العروس (١/٣٧٧) ، (عرب) .

فما ذكره علماء اللغة من تخريج في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، من اشتقاق اللفظة من (عربة) التي قالوا إنها باحة العرب ، أو من (يعرب) ، أو من اعراب لسانهم ، أي ايضاحـــه وبيانه ، لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار ، أو بما شاكل ذلك ، هو كله تخريج متكلف ، يمثـــل تخبطهم فيه ، كتخبطهم في تفسير الأسماء التي لم يعرفوا من أصلها شيئاً، فوضعوا لها تخريجات أوجدوهـــا لإظهار علمهم بها ، ووقوفهم عليها ، وعلى كل شيء قديم[1] .

وفي العربية الحالية : الإعراب. وهو تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون . احتفظت العربية به على حين فقدته معظم اللغات السامية ، باستثناء البابلية القديمة[2] . ويظهر من القرآن ومن الشعر الجاهلي، أن الإعراب كان من سمة هذه اللغة التي نزل بها الوحي .

ويرى بعض المستشرقين أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليـه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة[3] .

ولعلماء العربية بحوث مستفيضة في (الإعراب)[4] ، كما ان للمستشرقين بحوثاً فيه . وقد ذهب بعض منهم الى أن بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل لهجـــة قريش لم تكن معربة ، أو انها لم تكن على هذا النحو من الإعراب الذي ثبتـــه وضبطه علماء العربية في الاسلام ، حتى ذهب (كارل فولرس) الى أن القرآن لم يكـن معربـــاً في أول أمر نزوله ، لأنه نزل بلسان قريش ، وهو لسان غير معرب ، وانما أعرب حين وضع علماء اللغة والنحو قواعد العربيـــة على وفق لغة

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٤٣) .

٢ العربية ، ليوهان فك (ص ٣) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها)، الخصائص (١/٣٤) ، السيوطي ، الحاوي للفتاوي ، (٢/٢٦٩ وما بعدها) .

٣ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٧/٣١) .

٤ راجع الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون (١/١٢١) ، حيث تقف على أسماء بعض المؤلفات التي ألفت في اعراب القرآن .

الأعراب المعربة ، التي أخذوها من تتبعهم الشعر الجاهلي وكلام الأعراب[1] .

وقد لمس (كاله) هذا الموضوع كذلك ، وتطرق الى ما ورد في الرواية من أخبار تحث المسلم على وجوب مراعاة قواعد الإعراب عند قراءته القرآن . فاستنتج منها ان كتاب الله لم يكن عند نزوله معرباً ، فلما جعل الإعراب من سمات العربية ، أعرب وفقاً لقواعده . وساق دليلاً على رأيه هذا ما ورد من آراء بهذا الموضوع للفرّاء (٢٠٧ هـ) . وهو يرى ان علماء العربية استنبطوا قواعد الإعراب من الشعر ومن لغات الأعراب ، ثم ضبطوا بها النص القرآني بموجبها، وبذلك سعوا لخدمة القرآن[2] .

وقد خالف (كاير) « R. Geyer » و (نولدكه) « Th. Nöldeke » رأى (فولرس) ، وذهبا الى أن ما ذهب اليه من أن القرآن لم يكن معرباً ، ثم أعرب ، رأي لا يؤيده دليل ، لا من حديث ولا من خبر أو لغة ، وذهبا الى احتمال حدوث اختلاف في القراءات ، بسبب كون الحروف صامتة ، فلما كان الرسول يتلو القرآن ، وكان الصحابة يدوّنونه بحروف صامتة ، لا حركات فيها ولا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض ، وقع اختلاف في التلفظ بسبب عدم وجود الحركات ، ووقع اللحن من بعضهم في القراءة ، ولكن القرآن معرب ، وآية ذلك وجود آيات عديدة لا يمكن فهم معانيها إلا بقراءتها معربة[3].

ففي القرآن آيات لا تترك مجالاً للشك في أنه نزل معرباً ، ففي آية « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[4] ، وفي آية « أن اللهَ بريء من المشركين ورسولُه »[5] ، وآية « وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ »[6] ، وآية « وإذا حضر القسمةَ أولوا القربى »[7] ، وغيرها ، براهين واضحة تفيد أن موقع الكلم فيها كان معرباً ، وأن هذا التركيب الذي تختلف معانيه باختلاف تحريك أواخر كلمه ، لا بد وأن يكون كلاماً معرباً

---

١ K. Vollers, Volkssprache und Schriftsschprache in alten Arabien. Strassburg, 1906, Shorter Ency., p. 276.

٢ يوهان فك ، العربية (٥ حاشية) .

٣ Shorter Ency., p. 276.

٤ سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

٥ التوبة ، الآية ٣ .

٦ البقرة ، الآية ١٢٤ .

٧ النساء ، الآية ٨ .

في أصله ، وليس من التراكيب التي أصلحت فيما بعد وفقاً لقواعد الإعراب [1] .

وروي ان أعرابياً سمع إماماً يقرأ : « ولا (تَنْكِحوا) المشركين حتى يؤمنوا » ، بفتح تنكحوا ، فقال : سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده ! فقيل له : إنه لحن والقراءة : « ولا تُنكِحوا » ، فقال : قبحه الله ، لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرم الله [2] .

والعربية المحضة ، هي عربية معربة ، فيها كل خصائص الإعراب ، غير ان الإعراب يتباين فيها بعض التباين بحسب تباين اللهجات ، نقول ذلك استناداً الى ما ضبطه علماء اللغة من وجوه الاختلاف بين لغات العرب . ونرى أثر الإعراب في النص المعروف بنص (حران) لصاحبه (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، ففي جملة (بنيت ذا المرطول) الواردة فيه ، والمكتوبة بصيغة المفعولية بنصب لفظة (ذا) لوقوع الفعل عليها ، دلالة على وجود الإعراب في لغة هذا النص . أما جملة (انا شرحيل بر ظلمو) ، فقد دونت وفقاً لقواعد النبطية لا العربية الفصيحة ، مما يدل على تأثر الكاتب باللهجة النبطية .

أما بالنسبة الى عربية المسند ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود من يتكلم بها على نحو ما كانت في الجاهلية من الصفاء والأصالة ، ولأن المسند لا يستعمل الحركات في الكتابة ولا أية علامة تدل على تغير أواخر الكلمات ، فلا ندري كيف كانوا يحركون أواخر الكلم ، وعلى معرفة هذه الحركات يتوقف بالطبع معرفة وجود الاعراب من عدم وجوده في لهجة من اللهجات .

وأما بالنسبة الى النبطية ، وهي لهجة عربية شمالية ، أقرب الى العربية الفصحى من العربيات الجنوبية ، فقد ذهب الباحثون في قواعدها ، الى أن أواخر الكلمات فيها ، تتغير فيها بحسب مواقعها من الإعراب ، حتى ذهب بعضهم الى وجود الحركات فيها ، وهي الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، غير انهم لم يكونوا يعقبون هذه الحركات بالنون .

والإعراب وإن سقط اليوم من لغاتنا الدارجة ، ومن لهجات الأعراب ، غير أن هنالك قبائل في جزيرة العرب ، لا تزال تتكلم بلهجة عربية معربة ، إعرابها

---

١ يوهان فك ، العربية (٣ وما بعدها) .
٢ عيون الاخبار (٢/١٦٠) .

موافق لإعراب هذه العربية الفصحى . ونحن نأسف لأن علماء العربية في هذا اليوم، لم يهتموا حتى الآن بدراسة لهجات هذه القبائل ، ودراسة أصولها وأنسابها ، ولم يعتنوا بوضع خريطة بمواضع القبائل موزّعة على حسب لهجاتها وخصائص ألسنتها، في الماضي وفي الحاضر ، مع ان في وضع هذه الخرائط أهمية كبيرة في تعيين لغات العرب ، وفي كيفية تثبيت المناطق التي انتشرت فيها العربية الفصحى ، والمناطق التي لا تزال تتحدث بها بطبيعتها ، لا عن دراسة وتمرين .

والعربية لغة واسعة ، « قال بعض الفقهاء : كلامُ العرب لا يحيط بـه إلا نبي »[1] . و « أن الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير »[2] . وفي كلام علماء اللغة هـذا حق ، فالألفاظ وهي مادة اللغة وسداها ولحمتها لا يمكن أن يساير عمرها عمر اللغـة ، فمنها ما يموت ، لذهاب الحاجة اليه ، ومنها ما يقل استعماله فيهمل ، ومنها ما يولد ، لظهور الحاجة اليه ، وقد تتبدل معاني الألفاظ وتتغير ، الى غـير ذلك من أمور تطرأ على الألفاظ يبحث عنها علماء اللغة ، وهي لا تدخل في موضوعنا هذا ، في هذا المكان .

هذا وليس من السهل على أحد التحدث في هذا الوقت عن مبدأ نشوء العربية الفصحى ، وعن الأدوار التي مرت عليها حتى بلغت المرحلة التي وصلت اليهـا بتثبيتها في القرآن الكريم . وذلك بسبب عدم وجود نصوص جاهلية مدونة بهذه اللهجة . فالقرآن الكريم هو الذي ثبتها وعرّفنا عليها ، وبفضل كونه كتاباً مقدساً أقبل العلماء على دراسة لغته،واضطروا على جمع قواعدها،فصارت لغتنا الفصحى ، أما الشعر الجاهلي ، فمع انه أقدم عهداً من القرآن ، لكنـه ثبت ودوّن بعده ، إذ لم يصل الينا حتى الآن أي أثر منه مدون تدويناً جاهلياً ، ولهذا فالقرآن والشعر هما أقدم ما عندنا من نصوص بهذه العربية في النثر وفي النظم ، ولولاهما لما كان في وسعنا الوقوف عليها .

ولعربيتنا بعد ، في نظر علماء العربية خصائص ومميزات ، ميزتها كما يقولون عن بقية اللغات منها : اتساعها من حيث المفردات ، ومنها تخصصها دون غيرها

---

١ المزهر (١/٦٤) ، الصاحبي (٤٧) .
٢ المزهر (١/٦٦) .

على حدّ قولهم بالاعراب ، ومنها ، تفردها بالمترادفات ، وبالأضداد ، أضف الى كل ذلك اتساع حجم قواعد نحوها وصرفها . قال (ابن فارس) : « فلما خصّ — جل ثناؤه — اللسان العربي بالبيان عُلم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه . فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان،لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يُسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذ غلط ، لأنّا لو احتجنا الى أن نعبر عن السيف وأوصافه بالفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ »[1] .

المترادفات :

وفي العربية ألفاظ عديدة يراد بها معنى واحد ، فللعسل (٨٠) اسماً ، وللأسد (٣٥٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وقيل (٦٧٠) ، وللحيّة (٢٠٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وللداهية (٤٠٠) ، وقيل أربعة آلاف ، وللحجر (٧٠) ، وللكلب (٧٠) ، وللسيف (٣٠) ، وقيل (١٠٠٠) ، وللناقة (٢٥٥) ، وللبعير (١٠٠٠) ، وللشمس (٥٢) ، وللخمر (١١٠) ، وقيل (٢٠٠) ، وللبئر (٨٨) ، وللماء (١٧٠) وغير ذلك ، وخاصة ما يدخل في باب الصفة ، وما يدخل في باب الميل الجنسي ، فلا تكاد تتصفح مادة في معجم ، حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر[2] .

ويقال لهذه الألفاظ التي تدل على شيء واحد : (المترادفات) . والمترادف

---

١ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١٩٣/١) ، المزهر (٤٠٧/١) ، « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين » « حفظت للحجر سبعين اسما » ، الصاحبي (٤٤) .

أن تكون أسماء لشيء واحد ، وهي مولدة ومشتقة من تراكب الأشياء[1] . وعرف بعض العلماء المترادف ، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[2] . ولعلماء اللغة كلام في المترادفات . منهم من يقول بالمترادفات ، وبأن الألفاظ وإن اختلفت فإنها ترجع الى معنى واحد ، ومنهم من أنكر الترادف ، وزعم ان كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات[3] ، وان في كل واحدة معنى منها معنى ليس في الأخرى[4] . ومن قال بالترادف ، نظر الى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع نظر الى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات . وجعل بعضهم هذا قسماً آخر ، سمّاه المتكافئة[5] .

والذين ينكرون الترادف ، يقولون : إن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنه هذه اللغة . ويرون أن كل لفظ من المترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة ، وان كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ففي كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه[6].

وهم يعتبرون المترادفات أسماءً تزيد معنى الصفة ، ويختلفون بذلك عن غيرهم ممن أنكر الترادف وقالوا إن الموضوع للمعنى الأصلي اسماً واحداً والباقي صفات له لا أسماء ، فأسماء السيف كلها أصلها السيف وسائرها صفات له ، كالمهند ، والصارم والعضب وغيرها[7] ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج،وكادت تتجرّد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الإسمية[8] .

ومذهب آخر يرى إثبات الترادف ، لكنه يخصه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد . كما يقال أصلح الفاسد ، ولمّ الشعث ، ورتق

---

١ تاج العروس (٦/١١٦) ، (ردف) .
٢ المزهر (١/٤٠٢) .
٣ المزهر (١/٤٠٣) .
٤ المزهر (١/٤٠٥) .
٥ المزهر (١/٤٠٥) .
٦ الرافعي (١/١٩٠) .
٧ الرافعي (١/١٩٠) .
٨ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي (٣٧) .

الفتق ، وشَعَب الصدع ، ونحوها . أما اطلاق الأسماء على المسمى الواحد ، فيسمونه المتوارد : كالخمر ، والعقار ، والليث ، والأسد .

ومنهم من أثبت الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ، ولا تقسيم ؛ وعليه أكثر اللغويين والنحاة [1] .

ومن أهم أسباب الترادف في العربية ، ان العرب كانوا قبائل لها لهجات وألسنة مختلفة ، فتباينت بتباين ألسنتها أسماء الأشياء . فالسكين لغة في المدية ، والمدية لغة في السكين عند دوس . وفي حديث أبي هريرة : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » ، وذلك حين قدم من دوس ولقي الرسول ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولني السكين ، فلم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، فقال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها فقيل له : نعم ، فقال: أو تسمى عندكم السكين ، والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ [2] . فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى ، أو استعملت غيرها ، خصوصاً وان بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل ، وثالثة في بادية ، وقد تأخذ قبيلة اسماً من الأعاجم لشيء لم يعرف اسمه عندها فتعربه ، فيكون اسماً له ، وقد تأخذ قبيلة اسماً أو أسماء توجد في لسانها من لسان قبيلة أو ألسنة قبائل أخرى ، فلما جمع علماء اللغة ألفاظ العربية ودونوها ، ولم يفطنوا الى أصلها ولا الى القبائل التي استعملتها ، ولا الى تأريخها ، لعدم وجود هذا النحو من البحث عندهم في ذلك الوقت ، فدونت على انها مترادفات ، وهم في ذلك على صواب ، ولكنهم كانوا على خطأ ، من حيث انهم لم يدركوا انها كانت لغات قبائل ، وان جمعهم للألفاظ ، وإهمالهم الاشارة الى أسماء القبائل المتكلمة بها ؛ جعلها مترادفات بالمعنى الذي ذهبوا هم اليه . وبذلك اتسعت مادة مفردات المعجم العربي اتساعاً كبيراً ، وهو في حقيقته حاصل جمع لهجات ، أخذ من اختلاف الألسنة ومن مختلف اللهجات ، فضم كله الى معجم العربية ، وظهر على انه مفردات هذه العربية ، لعدم إفصاح علماء اللغة

---

١ الرافعي (١/١٩١) .

٢ تاج العروس (٩/٢٣٨) ، (سكن) ، الاصابة (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (رقم ١١٩٠) ، الاستيعاب (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، فجر الاسلام (٥٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢١٤) .

عن أصل كل مترادف وعن اللسان الـذي نطق به في الغالب، فعمي الأمر علينا ، وصرنا نعتبر هذه الألفاظ التي تقصد مسمى واحداً من المترادفات .

ويرى بعض علماء اللغة أن من أسباب وقوع الترادف أن الصفات قد تتحول بتفشي الاستعمال وبكثرة ورودها على الألسنة فتنزل هذه الصفات منزلة الحقـائق العُرفية[1] . وقد تضخمت كتب اللغة كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، « فمثلاً إذا أطلق شاعر كلمـة الهَيْصم على الأسد من الهصم وهو الكسر، وأطلق عليه آخر الهرّاس من الهرس، وهو الدق ، وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للأسد »[2].

ولا يعدّ ثراء لغة بكثرة مفرداتها ومترادفاتها دليلاً على ثراء تلك اللغة ، ولا امارة على تقدمها من الناحية العقلية ، فإن اللغة تستمد مادتها من جميع محصولات اللغة الخاصة بالحرف ، والمهن ، وبالحياة الروحية ، كما تستمدها من جميع لهجات القبائل ، وما نجده من كثرة مفردات ومترادفات في العربية ، لا يعود الى كون هذه العربية لغة قبيلة واحدة ، أو عرب من العرب ، وإنما بسبب كونه حاصل جمع لغات ، جمعه العلماء من ألسنة متعددة فدوّنوه ، فظهر الشيء الواحد وقد يكون له عشرة أسماء أو أكثر من ذلك أو أقل حسب كثرة أو ندرة استعماله بين العرب ، فما كان مألوفاً عندهم ، وكانوا في حاجة ماسة اليه ، وكان استعمالهم له كثيراً ، وفوائده بالنسبة لهم عديدة ، كثرت مسمياته ، بل مسميات أجزائه كما كثرت عندهم صفاته ، التي تتحول بمرور الزمن الى أسماء ، ولهذا نجد في العربية كثرة من الأسمـاء والألفاظ ، هي في الأصل صفات ونعوت لخصائص أشياء[3] .

ومن أمثلة المترادفات في العربية : القمح ، والبُر ، والحنطة ، قال علـماء اللغة : القمح : البر ، لغة شامية ، « وأهل الحجاز قد تكلموا بها ، وقد تكرر ذكره في الحديث . وقيل لغة قبطية »[4] ، والبر بالضم الحنطة ... قال المتنخل الهذلي :

---

١ المزهر (١/٤٠٢ وما بعدها) ، الرافعي (١/١٩٢) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ بروكلمن (١/٤٣) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٨) ، (قمح) .

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندي البر مكنوز

قال ابن دريد : « البُر أفصح من قولهم الحنطة واحدته بُرة »[1] ، «والحنطة بالكسر البُر الحب المعروف »[2] . وهي في الواقع ألفاظ وردت في لغات ، حين ضبطها علماء اللغة ، فات عليهم انها لم تكن مستعملة في كل لغات العرب ، وانما هي في لغات بعض منهم . فالقمح مثلاً ، لفظة وردت في لغات عرب الشأم والحجاز ، لأنها من أصل آرامي ، هو (قمحو)[3] ، وقد كان أهل الحجاز في الجاهلية يستوردون القمح من بلاد الشأم ، فأبقوا التسمية الآرامية على حالها ، بعد أن أجروا عليها بعض التعديل . وأما (الحنطة) ، فنجد لها مقابلاً في العبرانية هو « Chittah » في العبرانية[4] ، مما يدل على ان اللفظة كانت مستعملة في العربية الغربية . وأما لفظة (بُر) ، فهي من الألفاظ التي وردت في نص (أبرهة) ، فهي لغة يمانية وحجازية ، وقد نص علماء اللغة على ورودها في لغة أهل الحجاز ، وربما أخذوها من أهل اليمن ، الذين عرفوا بزراعتهم للبر قبل الاسلام . ووردت لفظة (بُر) بمعنى حنطة في النص الموسوم بـ « Jamme 670 » إذ ورد فيه : (برم وشعرم عدى ارضهمو)[5] ، أي (حنطة وشعير في أرضهم) (حنطة وشعير من أرضهم).

ومما يكثر في هذه العربية (المشترك) ، وحده : اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة . ولعلماء اللغة بحوث فيه ، فمنهم من يؤيد وقوعه ومنهم من ينكر : ومن المشترك : العم ، فالعم أخو الأب ، والعم : الجمع الكثير ، ومشى ، فمشى يمشي من المشي ، ومشى إذا كثرت ماشيته ، وللنوى مواضع ، وللروبة والرؤبة معان ، وللأرض معان ، وللفظة الهلال معان ، وللفظ العين معان كثيرة ومواضع عديدة ، الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتب اللغة[6] .

---

١ تاج العروس (٣٨/٣) ، (برر) .
٢ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حنط) .
٣ غرائب اللغة (٢٠٢) .
٤ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ٣٠ ، الآية ١٤ ، سفر الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٢٢ ، الأصل « العبري » .
٥ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص .
٦ المزهر (٣٦٩/١) ، (النوع الخامس والعشرون) .

وفي العربية : الأضداد . وهو أن يكون للكلمة معنى ، ثم يكون لهـا معنى آخر مضاد له . وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ، مثل جلل للكبير والصغير ، وللعظيم وللحقير . ومثل الجون ، للأسود والأبيض . والقوي ، للقوي والضعيف، والرجاء للرغبة والخوف . والبسل للحلال وللحرام . والناهل للعطشان ، والناهل، الذي قد شرب حتى روي . والسدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغـة قيس : الضوء . واللمق : الكتابة في لغة بني عقيـل ، والمحو في سائر قيس . والجادي : السائل ، والمعطي . والرسُّ : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً . والشرى : رُذال المال ، وأيضاً خيـاره . الى غير ذلك من أمثلة ذكرها علماء العربية [1] .

ولبعض علماء العربية قصة يضربونها مثلاً على الأضداد ، فيقولون : « خرج رجل من بني كلاب ، أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، الى ذي جـدن ، فأطلع على سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ أي اقعد . فقال : ليعلم الملك إني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح : فقال الملك: ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطّمر . فقـال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ؛ من ظفر حمر . أي من أراد أن يقيم بظفـار فليتكلم العربية »[2] . ورواها (السيوطي) في كتابه (المزهر) الذي أخذت منـه القصة بهذا الشكل أيضاً : « وروي أن زيد بن عبدالله بن دارم ، وفد عـلى بعض ملوك حمير ، فألفاه في مُتصيد له على جبل مشرف ، فسلّم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِبْ ، أي اجلس ، وظن الرجل أنه أمر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما إنه ليست عندنا عربيّت ، من دخل ظفار حَمّر . أي فليتعلم الحميرية »[3] . وذكر أن « عـامر ابن الطفيل) قدم على الرسول ، فوثبـه وسادة ، والوثاب الفراش بلغة حمير .

---

١ المزهر (١/٣٨٧) ، (النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد) .

٢ المزهر (١/٣٩٦ وما بعدها) .

٣ المزهر (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٤٩٩) ، (وثب) ، الصاحبي (٥١) ، الفائق (٣/١٤٤) .

وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو موثبان، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو[1].

ومن الأضداد ألفاظ قليلة ، واضحة الضدية يطلقها الناس على الضد لاعتبارات لديهم ، مثل اطلاق لفظة (البصير) على الأعمى ، و (السليم) على اللديغ .

ولعلماء العربية بحوث وآراء في علة ظهور الأضداد. منهم من يرى ان الحرف اذا وقع على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، فمن ذلك الصريمُ ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحيٍّ من العرب والمعنى الآخر لحي غيره[2] ، فلما سجل علماء اللغة مفردات الألفاظ لم يسجلوا في الأكثر اسم القبيلة أو القبائل التي كانت تنطق بها ، فظن أن هذا التضاد هو مما وقع هذه العربية ، وانما هو في الأكثر حاصل جمع لغات .

وقد أنكر ناس مذهب الأضداد ، ومذهبهم ان الشيء لا يمكن أن يدل على الشيء وضده ، وأن النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد ، ومن هؤلاء : (أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه) ، (توفي نيف وثلاثين وثلاثمائة) ، وهو من علماء البصرة ومن المتعصبين لأهل البصرة ، وهو صاحب مؤلف في الأضداد ، ذكره (ابن النديم)[3] ، فهو ممن ذهب الى انكار الأضداد[4] ، وأثبته آخرون قائلين : يجوز أن يوضع لهما لفظ واحد من قبيلتين . وأن المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين[5] . ومن المثبتين له : قطرب ، وابن الأنباري، و (ابن فارس) ، وغيرهم[6] .

وقد ألف في الأضداد قوم من العلماء ، منهم : أبو علي محمد بن المستنير ، ويقال أحمد بن محمد ، ويقال الحسن بن محمد ، المعروف بقطرب المتوفى سنة

---

١ الصاحبي (٥١) .
٢ المزهر (١/٤٠٠ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٩٩ وما بعدها) ، المزهر (١/٣٨٧) .
٤ المزهر (١/٣٩٦) .
٥ المزهر (١/٣٨٧) .
٦ المزهر (١/٣٨٧ وما بعدها) .

(٢٠٦) للهجرة ، فله كتاب في هذا الموضوع ، يسمى : كتاب الأضداد ، كما أن له كتاباً مهماً في علل النحو ، اسمه كتاب العلل في النحو ، ولـه مؤلفات أخرى ذكرها (ابن النديم)[١] . ومنهم (الأصمعي)[٢] ، و(التوزي) ، وهو (أبو محمد عبدالله بن محمـد بن هارون) المتوفى سنة (٢٤٠ هـ)[٣] ، و (ابن السكيت)[٤] ، و (السجستاني)[٥] ، وابن الأنباري ، أبو بكر محمـد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، صاحب مؤلف في الأضداد دعاه (ابن النديم) كتاب الأضداد في النحو . وهو ممن اشتغل بجمع دواوين من أشعار العرب الفحول[٦] ، وغيرهم .

وعدّ علماء اللغة القلب ، والإدغام ، والابدال من خصائص العربية التي امتازت بها على اللغات الأخرى[٧] . وهي أمور تحتاج الى دراسة عميقة ، لأن دراسة علماء اللغة لها ، لم تنبعث عن دراسات علمية لبقية اللهجات ، ثم انها ملاحظات سطحية أخذت من أشخاص ، وليس من دراسة لقبيلة كلها ، إذ كان ذلك إذاك أمراً غير ميسور ولا ممكن . ولو درسنا الأمور المذكورة ، نجد انها حاصل لهجات ، لا من تبديل شخص لحرف أو قلبه حرفاً أو ما شاكل ذلك ، واتباع الناس بعد ذلك له .

ومما يلاحظ في هذه العربية هو كثرة ما فيها من جموع التكسير . وقد نجد فيها لفظة واحدة ، وقد جمعت في عدة جموع ، وهو دليل في نظري على انه من بقايا اللهجات . فلما شرع العلماء بالتدوين ، وراجعوا الشعر والأخبار ، والأعراب ، وجدوا أمامهم جموعاً لكلمة واحدة ، فسجلوها دون أن يشيروا الى الجهة التي أخذوا الجمع منه ، والى قبيلة الأعرابي الذي نطق لهم به ، فظن انها جموع هذه العربية ، ولا يعقل أن تكون كل هذه الجموع حاصل لغة واحدة . وهي

---

١ الفهرست (٨٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٢ الفهرست (٨٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٣ المزهر (٣٩٧/١) .
٤ الفهرست (١١٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٥ الفهرست (٩٣) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٦ الفهرست (١١٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٧ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

سماعية سمعت من أبناء القبائل فجمعت ، وهي لم تخضع لذلك لأحكـام القياس والقواعد المألوفة .

ومن هذا القبيل بعض الجموع الملحقة بجمع المذكر السالم ، مثل : أرضون ، وأهلون ، وعالمون ، وسنون ، ومئون ، وعضون ، وعزون ، فهذه من بقايا قواعد قديمة ، ترجع الى لهجات ، حين شرع علماء اللغة في تدوينها لم يفطنوا الى تدوين اسم اللسان الذي نطق بها .

وطبيعي أن تكون العربية فقيرة في الألفـاظ التي لا تدخل معانيها في ضمن حياة أهلهـا ، كألفاظ الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ، والألفاظ المستعملة في الحكومات وفي أنواع الدواوين والصناعات وما شاكل ذلك ممـا يكون عند الحضر ، ولا يألفه أهل الوبر ، لعـدم وجوده عندهم ، ولكن العربية ، إذا شعرت بالحاجة اليهـا ، أو اضطرت الى استعمالها ، أخذ أهلها أسماءها عمن يعرفهـا ، واستعملوها معربة أو بأصولها في لغتهم ، ومن هنا كثر الدخيل في العربية في الإسلام[1] .

وحيث أن للغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية ، نجد العربية غنية غنى مفرطاً في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنيـاء في الجمل ، يعرفون كل جزء منه ، وقد وضعوا ألفاظاً لكل عضو من أعضائه مهما دق فيه . وهم أغنياء فيما يتعلق بالصحراء وفي المطر ، وفي كل شيء يتصـل بحياتهم ، فهي من هنا لغة تمثل عقلية المتكلمين بها ، غلبت مصطلحات البداوة فيها على مصطلحات الحضارة ، سنة كل أمة تكون حياتها على هـذا النمط من المعيشة .

وليست اللغة العربية غنية بمفرداتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً، فجموع التكسير وأحياناً الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة[2] . وهي « غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العـديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تامـاً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء »[3] .

---

١ فجر الاسلام (٥٥) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ فجر الاسلام (٥٥) .

وليس غنى العربية بالمفردات بدليل حتمي على سعة هذه اللغة . وانما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم . فلما كانت القبائل تتصل بعضها ببعض وتكوّن مجموعات وكتل وأحلاف سياسية ، للدفاع عن نفسها وللغزو ، ولما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم ، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان الى مكان ، وقد يقيمون اقامة طويلة في مكان ما ، يجاورون ويوالون، اشتبكت ألسنتهم ، فأخذت وأعطت ، وزاد هذا الاشتباك حدة ، تنافس المناذرة والغساسنة على الزعامة ، وتدخل الروم والفرس والحبش في شؤون جزيرة العرب، ومجيء المبشرين النصارى الى القبائل للتبشير بينها ، واختلاط اليهود بالعرب ، وهم أصحاب دين ، واختلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن، وسفر أهل القرى وسادات القبائل الى الشأم والعراق للتجارة وللزيارة وللترويح عن النفس ، وأمثال ذلك ، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعياً وحساً وشعوراً بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أمة واحدة ، وبأن في حياتهم التي يحيونها من جميع نواحيها ما يحتاج الى اصلاح وتغيير ونظر . وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت ، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي ، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهين والمتعقلين منهم ، وفي الشعر الجاهلي ، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة ، وجالسوا أهل الديانات واطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتبهم ، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثر ، حتى في استعمال الألفاظ ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعجمية، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت ، الذي أدخل ألفاظاً في شعره غير مألوفة عند العرب .

ثم جاء الإسلام ، بكتاب سماوي ، صار لسانه لسان المسلمين ، فظهرت الحاجة الى التدوين والبحث والتنقيب لشرح كتاب الله وحديث رسوله وتفسير أحكام الله . فكان حاصل ذلك علوم اللسان . من مفردات جمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن ألسنة العرب ، ضبطت في كتب اللغة والمعاجم، وكوّنت بذلك هيكل العربية الفصيحة . وهو بناء عملاق لم يعمل من مادة واحدة ، وإنما من مواد أساسية عديدة ، هي لهجات القرآن والشعر ولغات القبائل التي رجع علماء اللغة الى أفرادها واليها للأخذ منها ، فهذا الغنى الملحوظ في مفردات العربية الفصحى ، إذن هو غنى سببه كونه حاصل لغات قبائل ، لا حاصل لغة واحدة أو لسان عربي معين .

وتولدت في الاسلام معان خاصة لألفاظ جاهلية غلبت عليها واختصت بها ، والى معانيها الجديدة قصد في الاسلام ، كما ماتت ألفاظ جاهلية أماتها الاسلام ، بسبب انها كانت تؤدي معاني خاصة بالنسبة لذلك الوقت ، فقد روي ان النبي قال : « لا تقولوا دعدع ولا لعلع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفع . فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي »[1] ، وروي انه نهى عن قول : خبثت نفسي ، واستأثر الله بفلان[2] .

ومن الألفاظ الاسلامية : المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق[3] ، ومخضرم ، وصلاة ، وصوم ، وغير ذلك . ومن الألفاظ التي كانت فزالت بزوال معانيها : المرباع ، والنشيطة ، والفضول ، والإتاوة ، والحلوان ، وأبيت اللعن ، والنوافج ، للإبل تساق في الصداق ، وحجراً محجوراً ، لمعنيين : الحرمان ، اذا سئل الانسان قال : حجراً محجوراً ، والوجه الآخر الاستعاذة[4] ، وأنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وأنعم ظلاماً ، وعموا صباحاً ، وعموا ظلاماً ، اذ حل السلام محلها في الاسلام[5] .

وظهرت الحاجة في الوقت نفسه الى وضع قواعد في نحو وصرف هذه اللغة ، لصيانة اللسان من الخطأ ، وليتعلم الأعاجم بها كيفية النطق بفصاحة وسلامة بهذا اللسان الجديد عليهم . فكان ما كان من وضع النحو مستعينين بالأسس النحوية (الغراماطيقية) ، التي كانت قد وجدت سبيلها الى العراق من أصول قديمة ، ثم بتتبع كلام العرب وبالاستقراء ، وقياس القواعد بعضها على بعض وبالتعليل ، يعللون النحو ويعتبرون به كلام العرب ، ثم لم يكتفوا بذلك كله ، فأخذوا دروب البادية ، للأخذ عن القبائل التي اشتهرت بالفصاحة وبالمحافظة على سلامة لسانها ، وتلقوا الأعراب الذين يطرأون من البادية على الحضر ، فأخذوا من هؤلاء ومن هؤلاء علماً كثيراً باللغة وبالشعر وبالغريب وبالنوادر وبكل ما يتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد في بطون الكتب .

---

١ الصاحبي (٧٠) .
٢ الصاحبي (٩٢ وما بعدها) .
٣ الصاحبي (٧٩) .
٤ الصاحبي (٨٩ وما بعدها) .
٥ المزهر (١/٢٩٤ وما بعدها) ، (النوع العشرون : معرفة الألفاظ الاسلامية) .